

الأدب العصري

في الجنوب الغربي لشبه جزيرة العرب

للدكتور ر. ب. سارجنت

—»»»»»»»»»»—

تمهيد

ليس في أنحاء العالم العربي جزء يعرف عنه الناطقون بالضاد أقل مما يعرفون عن الزاوية التي في الجنوب الغربي لجزيرة العرب إذا استثنينا منها عُمان . وفصلاً عن ذلك ليس في تلك المنطقة ما هو أقل معرفة لجيرانه من بلاد اليمن ، على الرغم من وقوعها في الطريق العام للعالم ، وعلى الرغم من تاريخها الطويل في ميدان الحضارة . يقول ابن خلدون : « وتبقى الصنائع طويلاً في البلاد المتحضرة . فهي هناك محفوظة تتجدد دائماً ، وخصوصاً ما تمتاز به اليمن (كنسج الوشي ، والعصب ، ونسج الثياب والملابس الحريرية إلى غير ذلك مما وصل إلى درجة الإتقان) » .

وليس من الصعب أن نشرح السبب الذي من أجله كنا على جهل بهذه البلاد ؛ فقد ظلت بلاد اليمن وحضرموت قرناً ونصف قرن وهما في اضطراب وفوضى لم يقض عليهما إلا منذ نيف وعشرة أعوام مضت . وكانت الحكومات القائمة في ذلك العهد لا ترضى أن تأخذ على عاتقها مسئولية السماح للأجانب بالسفر في البلاد أو بالكشف عن أسرارها . وكان يؤيد ذلك الخطر مناعة البلاد بجبالها الشاهقة التي في « اليمن الخضراء » ؛ لهذه الأسباب لم يتسن للرحالة ، أو العلماء ، أو التجار ، أن يتمقوا في جنوبي بلاد العرب ، منذ البعثة العلمية الدنماركية لنيبوهر ، ومنذ الأيام التي كان فيها للبريطانيين والفرنسيين مصانع في غما تشتغل في تجارة البن .

على أن الأحوال قد تغيرت في السنوات الأخيرة ، فاستطاع كل من العرب والأوروبيين أن يزوروا اليمن ، وبحمة عدن ، وحضرموت . وبين كتاب العرب في تلك البلاد

عبد المحسن الذي ظهرت كتاباته قبل الحرب الماضية ، ومنذ ذلك التاريخ ظهر الريحاني ، ونزيه المؤيد العظيم ، ثم أحدثهم جميعاً الدكتور حزين . وكان من ثمرة الاتصال السياسي بين اليمن من جهة ، ومصر والعراق من جهة أخرى أن اليمن استجلبت منها خبراء ، في العلوم الهندسية في الغالب ، كما أن اليمن أوفدت عدداً من طلابها إلى القاهرة وإلى بغداد . كذلك التحق بخدمة إمام اليمن عدد من السوريين والأتراك ، وعند عودتهم إلى بلادهم أفضوا بتضريحات إلى رجال الصحافة الذين كانوا يتطلعون لأخبار اليمن . ورغبة في رى ظمأ العالم للفكر عن أخبار اليمن ، استخرج من بين طيات المخطوطات الأب أنستاس ماري الكرملي كتاب « بلوغ المرام » للعرشي ونشره (طبعة مصر سنة ١٩٣٩) وهو يصل بتاريخ اليمن إلى سنة ١٩٠٠ . على أن القسم الخلاب في ذلك الكتاب هو الفصل المتع الذي كتبه نيافة الأب بقلمه عن الدولة الحديثة ، معتمداً فيه على الكتابات والجرائد المعاصرة . ومع ذلك فإن القارئ يسوغيه لأول وهلة رجوع الأب أنستاس ، في كثير من المواضع ، إلى مؤلفات الجغرافية في القرون الوسطى ؛ فاللومات التي جمعها ابن حوقل ، أو القندسي ، أو ياقوت ما زالت تقتبس سداً للنقص الذي في اللومات الحديثة عن اليمن ، على حين أن الحداني — وهو دائرة معارف عن جنوبي بلاد العرب — ذو وقع لنا لا يقدر . وقد أخرج نيافة الأب أنستاس الجزء الثامن من كتابه « الأكليل » مطبوعاً طبعة شافياً . ولم يفتأ رجال الأدب يملنون حزنهم على فقد الأجزاء الضائعة من ذلك السفر ، غير أنه ينبغي لنا ألا نقترض ضياعها لمن شياؤون بعدنا ، فإن الريحاني يقرر أن الإمام عنده نسخة كاملة للكتاب في مكتبته بصناء ، وهي مكتبة يقال إنها إحدى كبريات المعاهد التي من هذا القبيل في الجزيرة العربية ، ولو أن هناك كذلك مجموعات فاخرة من الكتب في حوزة أمراء حضرموت . والحق أنه يجدر بنا أن نؤمل أملاً غير ضائع في أن كثيراً من الكتب الماثورة ، التي لم يصل إلينا علمها إلا من كتاب « الفهرست » أو كتاب « كشف الظنون » ، ربما كشف عنها البحث في جنوبي الجزيرة العربية .

كما أن هناك مجلداً ضخماً عن تاريخ الأولياء وطبقات الفقهاء في بلاد اليمن ، إلى جانب سير الصحابة والمدائح النبوية .

ذلك إلى أننا نجد كثيراً من الكتب الزيدية بأقلام أتباع المذهب الخامس كما يسمى الزيدية مذهبهم ، كما نجد كمية عظيمة من الكتب الفقهية الشافعية ، وتنقسم البلاد جغرافياً إلى قسمين : اليمن الأعلى واليمن الأسفل ، ويتبع الانقسام المذهبي ذلك الانقسام الجغرافي على وجه التقريب . ويمكن أن تسمى صنعاء الحاضرة الثقافية للزيدية ، على حين أن زيد ، وترجم ، وغيرها من المدن الجنوبية ذات المعاهد العلمية التي أنشأها أو أحيائها الأمراء الرسوليون ، ما زالت مراکز لفقه المذهب الشافعي .

ومن أنصح الأدلة على أهمية البلاد من حيث هي مركز ثقافي في العصور الوسطى أن السلطان الملك الأشرف دعا العالم اللغوي الشهير الفيروز آبادي للإقامة هناك في نهاية القرن الثامن الهجري ، ثم عينه بعد ذلك قاضياً للقضاة . ومعظم الكتب العلمية التي ألّف في العصور الوسطى ، من طراز كتاب « شمس العلوم » لنشوان الحميري ، هي نتاج لدراسة سنية صحيحة وإن كانت خالية من الابتكار . وعلى ذكر هذا الكتاب نقول : إن إمام اليمن كان يأمل أن ينشره بجميع أجزائه ، بل إنه رغب في الأمر المرحوم الملك فؤاد ، وقد عين وقت للنشر ، بل إنه صدر إعلان عن ذلك النشر ، ولكن واحسرتاه ، لم يظهر الكتاب حتى الآن . ويمكننا أن نقول بصفة عامة إنه يبدو أن اليمن في العصور الوسطى ، على الرغم من الطابع الخاص الذي امتازت به مؤلفاتها ، لم تنخفض عن حركات أدبية مبتكرة أو ذات نباهة عظيمة . ولعل خير ما يوضح لنا اتجاه الناس نحو العلم ، من حيث هو إجلال واحتفاظ للمعلومات ، هو البيت الآتي الذي قاله شاعر منمور وأنشدني أحد أصدقائي :

العلم يعلى بيوتاً لا أساس لها والجهل يذني بيوت العز والشرف
وبما أن اليمن اليوم بلاد ما زالت إلى حد كبير في العصور الوسطى ، تتحرك الهويّة نحو الحياة المصرية السائدة في سائر العالم ، لم يكن هناك بدمن أننا نجد ما ينشر فيها اليوم من الكتب يشبه كثيراً في طابعه تلك الكتب التي أخرجتها في العصور الوسطى .

ويستغل بجمع هذه المخطوطات في اليمن سيف الإسلام عبد الله الشهور بولمه بشئون التربة . وقد سمعت من يجزني بأن مصاحف بالخط الكوفي القديم كانت لا تزال تستعمل في القرى النائية حتى عهد غير بعيد . وربما أحل انتشار المطبوعات مصاحف مطبوعة محل تلك المخطوطات ، فاليمن اليوم تتطور تطوراً ربما كان أعظم من أي تطور شاهده في خلال عدة قرون مضت .

أنواع الأدب الضرب السائرة في الجنوب الغربي لجزيرة العرب

يخرج الأدب في الجنوب الغربي لجزيرة العرب ، بصفة عامة ، إلى نواح ملموسة ما تزال واضحة في كتابات العصر الحاضر ، وخاصة فيما يتعلق بأغراض الأدب أو موضوعات الكتابة . وأقدم الكتب التي خلفها كتاب هذه البلاد في الماضي هي في الغالب دواوين شعر هوفي كثير من الأحيان شعر ديني ذو نزعة صوفية . وقد قام لويس شيخو بدراسة فيها شيء من التفصيل للشعراء النصارى القدامى في تلك المنطقة . وأشهر المنظومات غير الدينية ، وأصلحها تمثيلاً لغيرها ، هي « القصيدة الحميرية » لنشوان بن سعيد ، وفيها يتحدث الشاعر عن افتخاره بالتراث الموروث في العلم والعزة والسلطان . ومن ذلك قوله :

وملوك حمير ، ألب ملك ، أصبحوا

في الترب رهمن مفاخ وضراح
آثارهم في الأرض تخبرنا بهم ، والكتب من سير تقص صحاح
أنسابهم فيها تبين ، وذكرهم في الطيب مثل العنبر الفياح
ملكوا المشارق والمغرب ، واحتوا

ما بين أنقرة ونجد الجاح
ملكتم عمود وعادا الأولى معاً منهم ملوك لم تكن بشحاح
وكان للمؤلفات التاريخية دائماً ازدهار وخاصة في العصر الرسولي حينما كانت زيد مركزاً لحركة أدبية منتعشة . ونكاد نكون في غنى عن التنويه بأمثال هؤلاء المؤلفين أو هذه الكتب : عمارة الخزرجي ، والجندي ثم توارى صنعاء والنز . وكان من الطبيعي ، في بلاد تقوم فيها الحياة على نظم القبائل ، أن يشغل علم الأنساب بال مؤلفين ، وقد كتب فيه السلطان الملك الأفضل ،

الطباعة والطبوعات في اليمن

العلماء والمتعلمين» وهو يبحث في آداب المعلمين والطلاب ، ويبحث هذا الكتاب كذلك في طريقة الخط ونسخ المخطوطات . وحسبنا في أنه روى أن هذا الكتاب يستأهل الطبع دليلاً على نوع التربية التي ما زالت سائدة هناك ، فإن البلاد التي أخذت بنصيب أوفر في التقدم لا ترى في مثل هذا الكتاب ما يزيد كثيراً على قيمته التاريخية من حيث هو أثر من الآثار . وبانقطاع علماء اليمن عن الاتصال المباشر بسلطان البلاد العربية ، بموامل البيئة الجغرافية والاعتبارات الذهبية ، أصبحوا على غير شاكله العلماء في البلاد الأخرى .

على أن مطبعتي صنعاء أخرجتا عدة كتب فيها روح جديدة ، فهناك كتابان في الفنون الحربية ، وكتاب في الزراعة . وقد ظهر الكتابان الحزبان في سنتي ١٣٤١ و ١٣٥١ هـ . واسم أولهما « كتاب التربية العسكرية » ، ومؤلفه هو حسن تحمين باشا ، وهو رجل سوري كان في وقت من الأوقات قائداً للجيش الهاشمي . وبين سنتي ١٩٣١ و ١٩٣٣ م كان هذا الضابط في اليمن يمد تنظيم جيش الإمام ، والقواعد التي وضعها في هذا الكتاب تدل على درجة أعلى في تنظيم الجيش مما هو قائم الآن ، ولكنها تؤمل بحجمه وقت تتحسن فيه الإدارة الحربية .

أما كتاب « رسالة في فن زراعة الأشجار المثمرة » فكان من تأليف أحمد واصف بك ، المستشار الزراعي في الحقبة التي في سنتي ١٩٣٥ و ١٩٣٦ م . ويعالج الكتاب ، كما يدل عليه عنوانه ، موضوع زراعة الفواكه واستخدام الوسائل الزراعية . وكان الأتراك في مدة احتلالهم لليمن قد قاموا بتجارب متقطعة في إدخال محاصيل جديدة في البلاد ، وقد احتذى البيت المالك حذوهم في القيام بتجارب أخرى من جانبه ، وعلى الأخص في زراعة القطن . ولا شك أننا سنرى في المستقبل الكثير من هذه الطبوعات الفنية والعلمية .

ومن المعلوم أن كثيراً من المؤلفات القيمة بأقلام بعض اليمنيين قد ظهرت في القاهرة حيث تقطن جالية يمنية . ومن بين هذه الطبوعات الكتب الثلاثة التي ألّفها عبد الواسع ، والتي تناول فيها التاريخ والجغرافية والشئون العامة التي تشرق القارى . ونحن

في صنعاء اليوم مطبعتان ، إحداها في القصر الملكي السمي « مقام الإمام » أو « المقام الشريف » . وهي هناك منذ العهد التركي ، وكانت تستعمل في طبع الجريدة « صنعاء » التي سنتحدث عنها فيما بعد . ومع أن هذه الطبعة كانت على ما يظهر تطبع بعض الكتب الصغيرة في الحين بعد الحين ، ليس لدينا بيان عن مبلغ ما أخرجته من المطبوعات . والمطبعة الأخرى ملك لإدارة المعارف . وفي خلال العشرين سنة الماضية طبعت هاتان المطبعتان عدداً محدوداً من الكتب ، ربما لا يتجاوز الثلاثين عدداً ؛ ومن المرجح أن قليلاً من تلك الكتب خرج خارج البلاد نفسها . وتدل موضوعات تلك الكتب على مبلغ اشتغال الناس بالشئون الدينية ، مما تمتاز به المنطقة الجنوبية لجزيرة العرب ، وتشجعه حكومة إمام اليمن . وتشتمل الكتب المطبوعة هناك على بحوث قرآنية ، ورسائل في مذهب الزيدية ، والفقه ، والحديث وما إلى ذلك ، وهي في الغالب طبعات لكتب قديمة من كتب المؤلفين السابقين .

وفي العلوم المدنية شغلت إدارة المعارف نفسها بجمع مواد لإخراج كتاب في تاريخ اليمن يمكن استخدامه في المدارس كتاباً مدرسياً . وقبل إعلان هذه الحرب كان تحت الطبع كتاب في تاريخ الإمام يحيى . وقد بلغ من ارتباط الأسرة الزيدية بالمالكة ببلاد اليمن وما جرى لها ، سواء في طول المدة أو وثاقة العلة ، ما جعل هذين الكتائين على شاكلتهما ضرباً من العناية للأسرة الحاكمة . ومن المرجح أن ذلك سيساعد على خلق روح القومية في البلاد . ومما يشغل بال حكام اليمن اليوم التربية والكتب المدرسية ، وهي مشكلة من المحتمل أن تزداد إلحاحاً على مرور الأيام . فأطفال المدارس الأولية مثلاً قلما يستعملون كتباً مطبوعة ، وإن كانت مدارس صنعاء تستعمل إلى حد ما كتاب « القاعدة البغدادية » ليعسى البابي الحلبي ، كما أن لدى إدارة المعارف مجموعة صغيرة من الطبوعات المدرسية . وفي « المدرسة العلمية » يكاد الطلاب لا يعملون سوى المخطوطات التي ينسخونها بأنفسهم . وطبع كتاب في قواعد اللغة أو علم النحو ، وكذلك كتاب مؤلف في القرن الماضي اسمه « كتاب

أن الموسيقى محظورة في اليمن إذا استثنينا جوقات الموسيقى الحربية ، وهذا الكتيب ينادى بنظرة تسامحية في شأن الموسيقى .

وقد نشر محرر فتاة الجزيرة عدة كتيبات أخرى شائعة ، على أن عدداً منها — كما هو الشأن في مطبوعات مطبعة صنعاء —

يتناول التاريخ ، والبحوث الدينية ، وسير العالخين ، ككتاب « سلالة قحطان » ، تأليف محمد سعيد الأصبحي . وأهم ما نشر

من الوجهة الصحافية هو سلسلة مقالات كتبها أعضاء النادي المعروف باسم « أفلام الخيم » ، وهي مقالات تتناول موضوعات

شتى ، مثل الكشافة ، والمذابح (فإن عدن لها عطلتها الإذاعية الخاصة «صوت الجزيرة» وهي كذلك تنشر صفحة عن إذاعتها) ،

وحياة صيادي السمك على الساحل الجنوبي لجزيرة العرب ؛ وكل هذه البحوث كتبت بأسلوب تقدي علمي . وقد أخبرني محرر

فتاة الجزيرة ، في رسالة بعث إلى بها حديثاً ، أن هناك كثيراً من اليمنيين في عدن يرغبون في نشر كتب ألفوها ، وفي هذا

دليل على مبلغ العناية التي ينالها الأدب في هذه المنطقة من العالم العربي . ولا يسعنا إلا أن نتوه بنهاية الحالية الهندية المسلمة في عدن

بالأدب العربي ، ولا سيما عبد الله يعقوب خان الذي هو حجة في تاريخ نجر عدن ، والذي نشر كتباً عن جغرافيته وأمثاله . وقد

ورد ذكر الهنود القاطنين بالشر قبل زمن أبي مخزومة الذي يشير في كتابه « تاريخ نجر عدن » عدة مرات إلى نشاطهم التجاري .

وخليق بالقراء الذين أخذوا من الحضارة بنصيب أوفى ، من أهل مصر وسورية اللتين مضى على قيام النهضة العربية فيهما عهد

طويل — خليق بهؤلاء القراء ألا يقتدوا هذه الطبوعات نقداً حديثاً على وفق المقاييس العالية للإنتاج الأدبي السائد في بلادهم ؛

بل عليهم أن يعدوها نواة الإنتاج الأدبي الذي تقدمه بلاد الجنوب العربي لجزيرة العرب إلى الثقافة العربية . ولنتذكر أن جمعيات

الناظرة التي من طراز « نادي الخيم » كانت ذات أثر فعال في القرن الماضي في قيام النهضة الثقافية العربية في سورية ؛ ونحن

نرى اليوم في عدن عوامل التقدم هذه تخلف آثارها .

(البقية في العدد القادم) عن مجلة الأدب والفن الإنجليزية

نأمل أن يأتي اليوم الذي يستطيع فيه هؤلاء المؤلفون اليمنيون أن ينشروا مؤلفاتهم في وطنهم . وسنرى أن معظم المؤلفات التي تنشر اليوم عن الجنوب العربي لجزيرة العرب إنما تنشر في مصر ، أو الهند ، أو جزائر الهند الشرقية .

همهم وطموح الحركة الحديثة

تختلف عدن اختلافاً عظيماً عن اليمن وعربها الجذابة التي خلفتها في القرون الوسطى ، بما فيها من الجبر العالمي الذي يستمد من مائة سنة كانت فيها عدن على اتصال مباشر بالبلاد الأوربية ، وبمصر ، والهند ؛ وبمدارسها الثانوية للبنين والبنات ؛ ويعلم في مدارس البنين معلمون من البلاد العربية الأخرى كسورية ، وأحياناً من الهند ؛ وبالعدد المتزايد الذي ترسله من أبنائها إلى جامعات القاهرة وبغداد . ويطلع الأهالي الجرائد المصرية الشهيرة ، بل إنني كثيراً ما رأيت كذلك روايات مصرية في أيدي المتعلمين في المدارس الثانوية من أهل عدن . ومما لا شك فيه أن الجالية السورية المؤلفة من مستوردي المسوجات والتجار تستورد كذلك الجرائد السورية ، وما نعهده في السوريين وميلهم للاشتغال بالصحافة يدعو إلى الظن بأنه في يوم من الأيام قد يقوم أحد السوريين بنشر جريدة في عدن . وليس هناك مفر من أن الصحافة تنتشر في مثل ذلك الجو ، وتصدر جريدة « فتاة الجزيرة » منذ أواخر سنة ١٩٣٩ . وكان في عدن قبل سنة ١٩١٤ ثلاث مطابع ، وكانت إحداها في السجن وربما كانت تقتصر على طبع الطبوعات الحكومية . وليس من المعروف مدى ما نشرته المطبعتان الأخريان من الكتب العربية ، ولم أستطع أن أعثر على أي مطبوع عربي صادر عنهما . على أنه قبل الحرب الحاضرة أخرجت مطبعة الهلال في بازار بهرة — وهي تطبع بكل من اللغتين العربية والإنكليزية — مجموعة شعرية وصلت إلى يدي ، وهي ديوان لأغاني لحج على أوزان بحور الشعر القديمة والبحور المولدة ، من نظم الأمير فضل بن علي . وقد أعيد طبع هذا الديوان في مطبعة فتاة الجزيرة ؛ وقد طبعت هذه الطبعة أيضاً رسالة في إباحة العود والرباب لنفس المؤلف المذكور . ولعل القراء يذكرون